تعريب العرب .. وتعريب التعليم

إعـــداد

دكتور/ عبد الغنى عبود(*)

توطئـــــة:

في نهايات الصيف الماضى، اتصلَ بى أحَد الأساتذة الجامعيين الأتراك ليناقشنى في بعض ما كتبتُ، وكان هذا الذى أراد أن يناقشنى فيه أموراً تتَّصل بما أصاب العالَم العربى على يد العثمانيين، مما يسود في كتاباتنا العربية في هذه الأيام، خاصة مايُحمِّل هذه الخلافة منها كثيراً مما أصاب العالَم العرَبى الحديث مِن تخلُّف.

ولا يعنينى – في هذه التوطئة – قضية التعريب أو قضية التتريك، وإنما الذى يعنينى حَمَاسُ الرجل لقضية جَدَلية، تمُسُّ آباءه وأجداده، وتمسُّ تاريخَه وتُراثه، إضافة إلى ما دار بينى وبينه من أمور تَمَسُّ موضوعنا المطروح مَسّاً مباشراً.

إنه يجيد اللغة العرَبية، ولكنه لا يعرِف من هذه اللغة إلا فُصحاها، مِمَّا جعله يصطدم (بالشارع) المصرى في كل موقِع مِن مواقعه، حيث لا يعرِف هذا الشارع عن العربية الفُصحَى إلا أقل القليل، بل إنه لَيَسخَر مِن المتحدثين بها أحياناً، حتى في وسائل إعلامنا الرسمى، على الأقل فيما يُعرَض من أفلام ومسلسلات فيها أحياناً، لها تأثير السحر في وجدان هذا الشارع.

وقد طلب منى أن يحضر مناقشة رسالة عِلمية من رسائل كليتنا، فاصطحبتُه معى إلى مناقشة رسالة كنتُ أُشرِف عليها مِن رسائل الدكتوراه،

(*) أستاذ التربية المقارنة والإدارة التعليمية بكلية التربية – جامعة عين شمس.

تَصادَف تحديدُ موعِد مناقشتها قبيل طلبه بأيام، فراعه أنه لم يكن يستطيع أن يتابعنا نحن المناقشين على المنصة، لأننا كنا نناقش بلغة الشارع المصرى، وهو ما لم يستطع – في فترة إقامته القصيرة – أن يتكيَّف معه.

وقد كانت قضية تَعَامُلنا مع لغتنا العربية الفُصحَى هى القضية الثانية، التى دار بينى وبينه بشأنها نقاش، بعد قضية الخلافة العثمانية.

وإذا كنتُ قد وجدتُ ما أصل به إلى كلمة سَواء بينى وبينه بشأن القضية الأولى، التى هى قضيته، فإننى لم أجد في القضية الثانية، التى هى قضيتى أنا، ما أدافع به عما يجرِى، وما أدافع به – بالتالى – عن نفسى، بل إننى لا أبالغ إذا قلتُ إننى أحسستُ بالخُذلان في هذه القضية، بقدر ما أَحَسَّ هو بالانتصار فيها، مِن عبارة واحدة ختم بها الحديث بشأنها، حيث قال: إن التلميذ التركى لا يجتاز الصف الثالث الابتدائى إلا ويكون قد أتقن مَهارات اللغة التركية إتقاناً تاماً.

وسوف نرى – في المؤتمر الثانِى لتعريب العلوم – الذى نعيش في كَنَفِه الآن – أننا سنخرج منه مخذولين أيضاً، إذا نحن قَوَّمنا هذا المؤتمر بمعيار لغة الحوار التى ستدور بيننا فيه.

قد يضيق بعضنا بهذه التوطئة، ولكننى رأيتها مدخلاً ضرورياً للموضوع، الذى رأيتُه – وقد أكون مخطئاً فيما رأيت – لُبَّ المعوّقات التى يتَّخذ منها مؤتمرُنا الثانى هذا عن تعريب العلوم مِحوراً له ومَداراً، كما رأيتُه السبيل الأوحد لاختراق حَوَاجِز التعريب، مما يسعَى المؤتمر إلى الوصول إليه.

اللغة الإنسانية:

اللغة أداة تواصُل بينَ مخلوقات الله في الكون، فلكل نوع من المخلوقات لغته التى يتواصل بها أفراد ذلك النوع ويتفاهمون، بشأن تسيير أمور حياتهم، وتحقيق استمرارية هذه الحياة - والبحوثُ العلمية في هذا المجال كثيرة، ونتائجها التى توصّلت إليها مِمَّا صار يشكل مادة خِصبة وغنية وطيبة أيضاً من مَوادّ وسائل الإعلام والبث الجماهيرى.

وإذا كان لنا أن نفرّق بين اللغة الإنسانية واللغات التى تستخدمها عناصر الكون الأخرى، فإننى أجتهد في تلخيص هذا الفرق في أنه بينما نجد لكل عُنصر من عَناصر الكون لغة واحدة خاصَّة به، لا تتغيَّر، يتواصَل بها أفرادُه في كل زمان ومكان، فإننا نجد لغة الإنسان على النقيض من ذلك، لغاتٍ شَتَّى، تطوَّرت كُلٌّ منها تطوُّرَها الخاصَ بها، والذى تتوسَّع كُتُب عِلم اللغة كثيراً في الحديث عنه، ونفهَم منه أنَّ هذا الفرق مرجعه هو الفرق بينَ الإنسان وبين غيره من المخلوقات، بوصفه مخلوقاً ذا ثقافة، ومخلوقاً عاقلاً في نفس الوقت، ليكون - كما أرادَ له ربُّه يومَ خلَقَه - خليفةً له في الأرض.

ومِن ثَمَّ كانت لغة الإنسان - التى هى تعبير عن حاجاته - تعبيراً أيضاً عن ثَقافةٍ يعيش في إطارها، بل إنها صارت مكوّناً أساسياً مِن مكونات هذه الثقافة، إضافة إلى كونها تعبيراً عنها، ومن هنا كانت هناك لغات (محترمة)، ولغات أقلّ احتراماً، ولغات هى دون ذلك كثيراً، بقدر احترام هذه الثقافة وتلك.

وإذا تذكّرنا أنَّ الثقافة ليست شيئاً أكثر من مجموعة البشر الذين يُعتَبرون تعبيراً عنها، وتجسيداً لها، تأكّدنا أنَّ قضية اللغة الإنسانية هى قضية أكبَر كثيراً مِن أنْ تكون مجرَّد أداة تعبير وأداة تَواصَل. إنها تتحَوَّل لتكون قضية وجود للأمة، أو لا وجود.

وكُتُب التاريخ هنا تُشبِعُنا بالحديث عن الدور الذى لعبته اللغة في تلك الحروب الدامية الطويلة التى دارت بين بنى الإنسان، شعوباً وقَبَائِل.

لم تكن الحرب أبداً حرباً بينَ شعب وشعب، وإنما كانت الحرب دائماً حرباً بين ثَقافة يعبِّر عنها شعب، وثَقافة يُعبِّر عنها شعبٌ آخَر، وكانت اللغة – في أحيان كثيرة – هَدَفا من الأهداف، لا لشيء إلا لأنها تعبير عن هذه الثقافة أو تلك، ومِن ثَمَّ لأنَّ هذه اللغة هى التعبير الأقوَى عن هذا الشعب أو ذاك.

وفي إطار الصراع اللغوى هذا، سمعنا – في التاريخ الحديث – عن صراع اللغة الفرنسية خاصة مع اللغتين الإنجليزية والألمانية، وهو صراع لن تتعَب في رؤيته – رغم التقارُب الأوربَىّ المُعلَن في هذه الأيام – على الأرض التى تتعايَش فيها اللغتان معاً، مثل الأرض البلجيكية، خاصَّة بينَ اللغتين الفرنسية والإنجليزية.

ولعلنا لا ننسَى – في هذا المقام – ذلك الصراع الذى دار على أرض جزائرنا العرَبية، وإن كان الصراع فيها قد التحمت فيه اللغة (العرَبية) بالدين (الإسلامي)، التحاماً صارت فيه عروبة الجزائر تعنِى إسلامَها، في مقابل كَثلَكَتها، التى تعنِى فَرنَسَتَها، رغم ما تَدَّعيه الدولة في فرنسا – مُنذُ الثورة الفرنسية – مِن موقِف مُناهِض للكنيسة الكاثوليكية.

اللغة تعبير عن هُوِيَّة:

لكل لغة نظامها الخاصّ بها في التعبير عن الأشياء، وهو نظام تمتزج فيه عَنَاصِر عِدَّة، وتتفاعَل – سويا – لتُفرِزَ لنا عصارة، هى التى نرى عليها اللغة، مقروءة ومسموعة جميعاً.

ومِن المنطِقِىّ أن تكون النواة الأُولَىَ التى دارت حَولَها بقية عناصر اللغة، ومِن ثَمَّ دار حولَها بناؤها كله، هو أصلها الأول، الذى استطاع أن

يتفاعل مع ثقافتها الأولى، والذى استطاع أن يكون - دون سواه - تعبيراً عن هذه الثقافة - ويلفتُ نظرَنا هنا أنْ نقرأ - في كُتب عِلم اللغة وفِقهها - عن سُلالات لغوية، ذاتِ صلة كبيرة بما يتحدّث عنه عُلماء الأنثروبولوجى مِن سُلالات بَشَرية، مما يعنِى أن اللغة - أية لغة - كانت - حتى في نشأتها الأُولىَ - كانت محكومة بالإطار الثقافى العامّ الذى يحكُم حياة الجماعة التى استخدمتها.

ومِثلما كانت اللغة - في نشأتها - محكومة بالثقافة التى وُلِدَت في إطارها - تعبيراً عنها - أخذت اللغة تنمو وتتطوَّر، مواكِبة لنموّ ثقافتها وتطورُها، ونحن نعرِف الفرق - مَثَلا - بينَ اللغة الإنجليزية التى كان شيكسبير يستخدِمُها وبينها اليوم، مِثلَما نعرِف الفرق في استخدام تلك اللغة في موطِنها الأصلىّ - انجلترا - وفي المجتمعات الجديدة التى انتقلت إليها - الولايات المتحدة الأمريكية واستراليا مثلاً، حيثُ يُخشَى أنْ تنسلخ عن اللغة الأم، انسلاخ لغات كثيرة في أوربا، عن اللاتينية.

وقد كان هذا الذى أصاب اللغتين اللاتينية والإنجليزية مِن تطورٌ، مُمكِنا أنْ يحدُث لِلُّغة العربية، لولا القرآن الكريم، الذى نعِرف الآن الحكمة الإلهية في اختياره، لغة الخطاب الإلهى إلى الإنسان حتى تقوم الساعة، حيثُ أثبتت أحداث التاريخ قُدرتها على التطوُّر مِن داخلها، تطوُّراً تستجيب به لمتطلَّبات الحياة مِن حولِها، لو أراد الأحياءُ المتحدِّثون بها ذلك.

إن اللغة العربية، التى يَدَّعى الأحياء المتحدِّثون بها اليوم عجزَها عن مواجهة متطلَّبات التقدُّم العِلمى والتكنولوجىّ الوافد مِن الغرب، هى هى اللغة العرَبية ذاتُها التى استطاع بها الأحياء المتحدِّثون بها في العصر العباسى الأول - أنْ يواجهوا متطلَّبات التقدُّم العلمى الذى وجدوه وافداً عليهم من

الشرق والغرب جميعاً، مع أنَّ التحدّى أمام هؤلاء الأحياء المتحدّثين بها في ذلك الزمان، كان أضعاف ما يواجهه أحفادهم، المتحدّثون بها اليوم.

إنَّ اللغة العربية لم تتغيَّر قدُرتها على مواجهة الجديد والتجاوُب معه، لأن هذه القُدرة إنما هى جُزء لا يتجزأ مِن بِنيتها، وإنما الذى تغيَّرَ هو الأحياء الذين ابتُلِيَت بأن يكونوا هم المتحدّثين بها، ومِن ثَمَّ كانت – حتى فيما تبدو عليه مِن ضعف في هذا الزمان – صادقة في التعبير عن .. ضعف أولئك الذين ابتُلِيت بهم.

ودعونى أدعو الجمعية المصرية لتعريب العلوم إلى عمَل تبدأ به، أحسَبُه متواضِعاً تماماً، وهو دراسة تجربة محمد على في موضوع التعريب ذاته، رغم أن الظروف مِن حولهِ كانت الأسوأ، ورغم أنه لم يكن مِصريا ولا متعلِّماً، ولا أشُقُّ عليها فأطالبها بدراسة التجربة الإسلامية في العصر العباسى، ولو أن المستشرقين والمؤرخين الغربيين أنفُسَهم سبقونا إلى ذلك، ويَسَّروا لنا سَبُل هذه الدراسة، حتى لا أُعرِّضَ القائمين بهذا العمل منها لأن يُتَّهَمُوا بالرجعية أو الأصولية أو السلَفية، التى صارت صفات يطلقها العاجزون عن العَمَل من الأكاديميين أنفُسِهم، على القادرين عليه.

لغتنا العربية، والثقافة التى تعبِّر عنها:

لولا القرآن الكريم، الذى أقبل الناس عليه إقبالاً بدَأ مُنذُ الحرب العالَمية الثانية، وتَزايَد تزايُداً ملحوظاً في العقد الأخير من هذا القرن، تأثُّراً بالحركة الأصولية العالَمية، التى يُمكِن اعتبارُها رَدّ فِعل طبيعياً لما سَمَّوه بالنظام العالَمى الجديد، أَحَسَّت شعوبُ الأرض كُلُّها بالهوان أمامَه – فلم يرضَ شعبٌ منها بأن يفقِد هُوِيَّته الثقافية أمامَ الثقافة التى أرادت أنْ تكون سيِّدة الثقافات،

مع أنها هى ذاتَها ثقافة هجين، لاتزال جذورها في أرضها جذوراً سطحية، لم تترسَّخ بعد.

وفي الوقت الذى قادت النخبةُ في كل أمة حَرَكةَ المقاومة تلك لهذا الخطر الذى تَبَدَّى، سارعت النخبة العربية إلى تَفَهُّمه واستيعابه والذوبان فيه، ربما خوفاً، وربما طمعاً، مما دفع بلِواء الأصولية ذاك إلى أن يحمِله أنصافُ المتعلمين وأرباعُهم وأثمانُهم، ومما دفع بثقافتنا إلى تيار مِن التناقُضات، لا أحسُبها شهِدت مثلَه مِن قبل، نعيشه في منازِلنا، مثلما نعيشه في أماكن عملنا، ونراه في الشارع وفي المعاملات بين الناس، وفي .. التليفزيون، حتى صار هَمُّ النخبة ذاتِها هو أنْ تتعايَش في فوضاه، بل وأن تفلسف هذه الفوضى، وتكون – في حياتها النخبوية تلك – تجسيداً مُقَنَّنا لها ومُفَلسَفاً، أو مُبَرَّراً تبريراً فلسفياً.

هذه هى الثقافة التى يعيش – في إطارها – العربىُّ اليوم – في السياسة وفي الاقتصاد وفي الاجتماع، وفي ممارسة العِلم وتعليمه أيضاً، وهى ثقافة يعلِن كُلٌّ منا تَبَرُّؤَه منها، ولكنه لا يملِك إلا أن يكون تعبيراً حياً عنها، وإلا كان من الخَوَارِج، ومصيرُ الخوارج في ثقافتنا العرَبية معروف، أيا كان سبب خروجهم هذا، فليس المُهِمَّ – في هذه الثقافة سبَبُ الخروج، وإنما المهم هو هذا الخروج ذاتُه.

وفي مِثل هذه الثقافة، لابد أن تكون اللغة التى تعبر عنها، وهى اللغة العرَبية، حائرة قلقة، تزاحمها – على أرضها – كُلُّ لغات الأرض، بما فيها اللغة العامية، بكل رَكَاكتها ووقاحتها، على النحو الذى صِرنا نسمَعُها عليه في الشارع المصرى خاصة، ممتزجة – على غير نظام – بكل ما يصل إلى الأذن المصرية خاصة، مِن ألفاظ لا منطق لارتياح الأذُنِ إليها إلا منطق فساد الذوق – عبرَ الشاشة الصغيرة خاصة.

ومِن المنطِقى في ظِلّ هذه الفوضَى اللغوية – أن تكون السيادة المُطلَقة، لِلُغة النظام العالَمى الجديد، اللغة الإنجليزية وقد طحنها طحناً اللسانُ الأمريكىُّ فأفسد فيها كل جميل، لنرى هذه اللغة تختلط بكل شىء، عامّىّ وفصيح، فيما يُنشأ مِن مَطاعم ومحلاّت أحذية، وفيما يُصنَع من لبان وبونبون، حيثُ ينتهى الاسم التجارى لكل منها بالحرفين الإنجليزيين (كو)، حتى صرنا نقرأ (رمضانكو) و(شعبانكو) و(ميتلاند)، فلا نستغرب ما نقرأ ولا ما نسمع – وهذا هو البلاء – أو لنقل إنه (البلاءكو).

وينتقل هذا البلاء – أو البلاءكو – إلى التربية – نظاماً وإدارة ومَنَاهج ومقرّرات ومؤسّسات، فهذا هو منطِق الأشياء، وتعلو أسْهم اللغة الإنجليزية وتَوابعها الثقافية، وتهبط أسهُم اللغة العربية وتوابعُها الثقافية.

إنه نزيف أُمّتنا العربية – نزيفُنا، ولا نعَباً بسيلانه، إن لم يصفِّق بعضُنا لهذا السيلان، لأن وراء هذا السيلان مستفيدون، لسنا نحن – الذين نحمِل همّوم الأمة – منهم، وإلا لكنا مِن المصفقين، ولما اجتمعنا هنا لنقول بالتعريب، رغم أننا نعرِف أننا نسبَح – بالفِعل – ضِدّ تيار الثقافة الجارف.

طوق النجاة:

إننا نعيش في عصر العلم لا محالة، والأصل في العِلم – رغم العالَمية التى يتّسم بها – أنه ابنُ بيئة بعينِها، نبَع منها، وراح يسعَى لحلّ مُشكلاتها، وفي هذه الحالة وحدّها، يُمكِن أن يكون عالَمياً، شأنُه في ذلك الفنّ والأدب، حيث لا يستطيع واحد منها اقتحام العالَمية، إلا في إطار ثقافة معيَّنة، يكون قد نَبَع منها، وصدق في التعبير عنها، وقام بدور يُذكَر في تحريكها، أو في التأثير فيها على نحو مِن الأنحاء.

وتعريب العلوم، الذى هو شعار الجمعية الراعية لهذا المؤتمر، هو طوق النجاة الذى لا أرى طوقاً غيرَه يمكن أن ينقذنا من الطوفان الذى انجرفت أقدامُنا إليه، بإرادتنا أو بغير هذه الإرادة – على ألا يُفهَم التعريب هنا على أنه مجرد تعريب لغوى، بعد أن وصل بنا الأمر إلى أن صارت حياتنا كلها في حاجة إلى أنْ تُعَرَّب.

إنَّ تعريب العِلم الذى أعنيه، يعنى أَنْ ينبُع هذا العِلم مِن أرضنا، فلا يكون مجرد نقل عن غيرنا، إلا بيئتنا، لأنَّ هذا العِلم الذى توصل إليه غيرُنا إنما توصّل إليه لحل مشكلات بيئته هو، التى تختلف – بالضرورة – عن مشكلات بيئتنا نحن.

ولا أظن أحداً منا في حاجة إلى أَنْ أوضّح له أننى لا أعِنى بذلك أن ننكفئ على أنفُسِنا، ونقطع صلتَنا بالعالم المُحيط بنا، فما كان هذا هو مفهوم العِلم في ثقافتنا في عصر من عصورها، وما كان مفهوم العلم في أية ثقافة غيرها، وإنما الذى أعنيه به هو أن يبدأ تفكيرُنا في قضايا العِلم مِن أرضنا، ومن ثقافتنا، ليكون هذا العِلم استجابة لثقافتنا، وحلاً لمُشكِلاتها، فيكون لهذا العالَم المحيط بنا في مسألة العِلم معنى، ويكون للاتصال به نفع.

ويوم يتمُّ تعريبُ العِلم على هذا النحو، فسنجد تعريبه لغوياً هو الأمر الأسهَل، لأننا سنجد أنفُسَنا مضطرّين إلى أنْ نفكرّ، وسوف نفكر – حينئذ – بلغتنا، وسوف نجد أنفُسَنا مضطرين إلى التعامُل معها، أو إلى التصالح معها، إذا نحن أردنا إلى الدقة في التعبير.

وعندما نستنبت العِلم في أرضنا – العرَبية – على هذا النحو، فإننا لن نفكر إلا فيها، ولن نفكر إلا بلغتها، ولن نعبّر عن أنفسنا إلا بهذه اللغة، ولن نكتب إلا بها، لأننا سنستعيد ثقتَنا بأنفُسِنا، لأننا صرنا – بالفعل – نافعين لأمتنا، نحس بالانتماء إليها، وسوف نسعىَ إلى أنْ يشاركَنا أبناءُ أمتنا فرحَتَنا

بما أنجزناه لها ولهم، وسوف نجد اللغة العربية تسرى على ألسنتا سرياناً، رشيقة حلوة، تحسّ بحلاوة رشاقتها ألسنتنا وأنفسنا.

على أنه ليس مِن الأمانة أنّ نُلقِى بالتبِعة كُلِّها علينا نحن الأكاديميين – فألأجهزة الاعلام دورها الفاعل والمؤثر في هذا المجال، ولكن التجربة أثبتت أن هذه الأجهزة لا تتخلَّف عن أىّ عمل جاد تجده، وأنها يوم تجدنا جادين، فسوف تسارع هى إلينا، لتنقل عنا ما ننجزه بالفِعل، وليس بمجرد الكلام.

إن عملنا – عندما ينبُع مِن أرضنا وحاجاتها، سوف يكون مدوِّياً، وسوف يحرك ثقافتنا كلها، وسوف نُحِسّ – يومَها – بأننا نافعون لأنفُسِنا، نافعون لغيرنا، وسوف نجد أنفُسَنا في موقِع القيادة مِن أمتنا، وسوف نجعَل للحياة على أرضنا معنى، سوف نكون سُعَداء بأننا نحن الذين صنعناه – وهذا المعنَى لابُدَّ أن ينتقل إلى تعليم العِلم الذى نُنتِجه، ولسنا له مجرد ناقلين.

وآخِرُ دعوانا أن الحمدُ لله رَبِّ العالَمين